تقوم فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، مثلاً، بمناظرات ايديولوجية، وتصل، من خلال ذلك، الى قرارات. مثل ذلك غير ممكن، وغير مجد. لكن هناك نقاطاً أساسية أصبحت من الأهمية لدرجة ان الفصائل لا يمكن ان تتعايش فيما بينها اذا لم تتفق عليها. مثلاً، هل تبنى التحالفات على الصعيدين الدولي والعربي باتجاه تقدمي أم باتجاه رجعي؟ على جواب مثل هذا التساؤل يتوقف الحل لحجم كبير من المشكلات المطروحة حالياً، ومستقبلاً. ليس ثمة تباعد كبير، في هذا المجال، في الموقف بين فصائل منظمة التحرير الفلسطينية، كما يبدو لأول وهلة. فربما الذين «يغازلون» الرجعية العربية والدولية، الآن، لا يقصدون التحالف وانما يفعلون ذلك باسم «المرونة»، وبدفع من «التناقض» الحاصل مع الاطراف التقدمية العربية؛ وربما الذين «يلتزمون» الجانب العربي التقدمي لا يشعرون بالراحة التامة، ويفتشون في واقعهم عن المزيد من حرية الحركة. ربما، ايضاً، يتمنى كل طرف، بل ويحاول، ان يجد صيغاً للتعاون مع الطرف الآخر من دون الانزلاق في المواقف، أو الخلط بينها.

طبعاً، من الناحية النظرية البحتة، لا يبقى اي معنى لحركة التحرر اذا تحالفت مع الرجعية الدولية، لان التحالف معها هو تحالف مع التبعية لا مع «التحرر». في الوقت نفسه، الصراع مع الرجعية الدولية لا يعني عدم المرونة. بالعكس، التصلب الاحمق في الموقف هو، في حد ذاته، ابتعاد عن «الثورية». الحوار العقلاني مع الواقع يؤلف أحد المرتكزات الاساسية للثورة؛ والثوري مرن حينما تلزم المرونة، وصلب حينما تلزم الصلابة، فهو عقلاني في «مرونته» وفي «صلابته». غير ان «المرونة» ليست تغييراً في الموقع، وليست انزلاقاً تدريجياً من خط «التحرر» الى خط «التبعية». الفصل بين الأمرين، على الصعيد العملي، ليس سهلاً، خصوصاً بسبب جو الديماغوجية السياسية، ولكنه ممكن، وممكن بصورة خاصة لقيادات الفصائل نفسها التي يفترض ان تبني احكامها بالاستناد الى حجوم كافية من المعلومات.

١٤

قد تكون الفصائل، على الصعيد النظري، متفقة أو متقاربة في كثير من الامور، حتى في الحرجة منها. مع ذلك، يمكن ان ينشأ، على الصعيد العملي، خلاف حاد ومدمّر، حتى فيما يتعلق بأمور بدهية متفق عليها نظرياً. كما يمكن ان ينشأ، على الصعيد العملي، إتفاق تام، ضمني وعلني، حتى في الامور المختلف عليها نظرياً. أسباب ذلك ليست واحدة، وانما معقدة ومتشابكة. ولعل أهم الاسباب يتركز في وجود درجة من العفوية لدى جميع الفصائل. وعندما تسود العفوية يقع المرء تحت سيطرة الضرورات العملية، سواء اتفقت هذه مع منطلقاته النظرية أم لم تتفق.

مثلاً، تحديد «الارض الصديقة» لم يتحقق لدى اي من الفصائل نظرياً؛ لذلك رضيت الفصائل، من قبل، بلبنان أرضاً صديقة. هل لبنان الستينات والسبعينات «ارض صديقة»؟ المشهور عن لبنان، في تلك الفترة، انه «ديمقراطي» ويمكن ان تتعايش فيه جميع الاتجاهات. كان النعت «ديمقراطي» يعني، في حقيقة الامر، «فوضوياً»، فالامور متروكة على غاربها لأن النظام الطائفي الذي يتوزع فيه الزعماء الطائفيون الوظائف العامة، بدءاً من وظيفة الدركي، لا يمكن ان يكون «ديمقراطياً». كانت «الديمقراطية» تتحول الى شراسة عندما يتعلق الامر بالتقدم، وتكون الدولة قادرة على قمعه. عدم القمع لم يكن ناجماً عن الروح «الديمقراطية»،